الصوم الأربعيني والفصح المسيحي

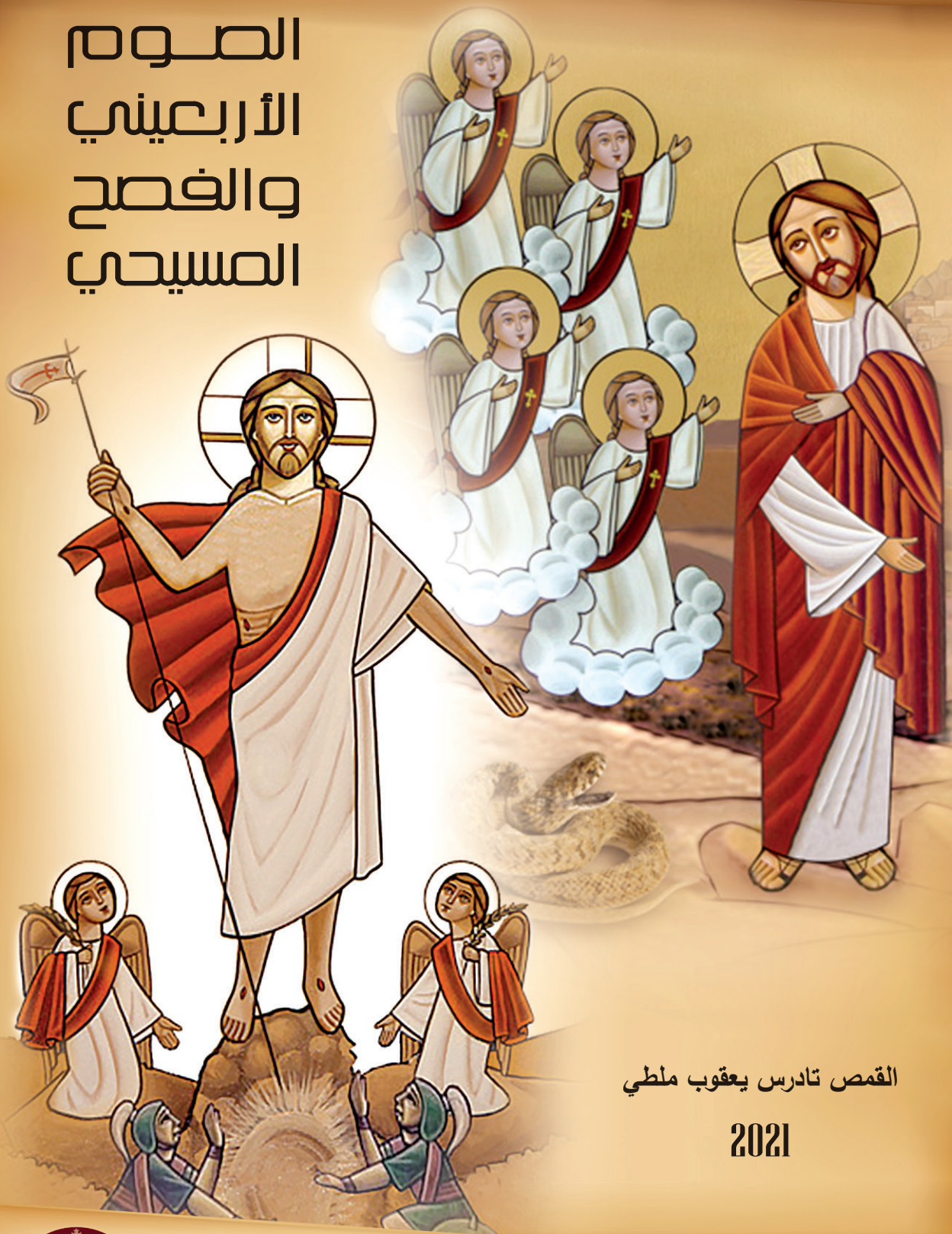

القمص تادرس يعقوب ملطي

2021

Coptic Orthodox Church
الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies

عيد الفصح المسيحي

اعتادت الكنيسة الأولى أن تدعو عيد القيامة المجيد بعيد الفصح المسيحي، لهذا دُعِيَت رسائل عيد القيامة للقديسين أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير وغيرهما من الآباء برسائل الفصح. فقد شعرت الكنيسة الأولى أن أحداث الصلب والقيامة هي تحقيق للنبوات الواردة في العهد القديم، وأن احتفال شعب الله في العهد القديم بعيد الفصح، الذي كان يحتل المركز الأول في أعيادهم، هو رمز لصلب ربّ المجد لخلاصنا وغفران خطايانا، ولقيامته التي قدّمت لنا الحياة المُقامة وفتحت لنا باب الرجاء في الحياة الأبدية.

ورثت الكنيسة هذا الفكر الرسولي، فاعتبرت عيد القيامة المجيد أو عيد الفصح المسيحي هو "العيد الكبير"، إذ غاية كلمة الله في إخلاء نفسه وتجسده وعماده والسماح للشيطان أن يُجَرِّبَه وخدمته وأحاديثه الإلهية وكل أعماله إنما تقديم الخلاص بصلبه وقيامته، لنُصلَب معه كل يوم ونختبر قوة قيامته، فيصير لنا بنعمته أن تصعد قلوبنا كما الى السماء ونختبر عربون السماويات ونصرخ بكل قلوبنا: "آمين، تعال أيها الرب يسوع" (رؤ ٢٢: ٢٠).

هذا وقد ربطت الكنيسة الصوم الأربعيني بآلام السيد المسيح وصلبه وقيامته، بكون هذا الصوم يُقَدِّم لنا ما قاله بولس الرسول عن خبرته الإيمانية العملية قائلاً: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه، متشبهًا بموته" (في ٣: ١٠). وقد كشف القديس مار يعقوب السروجي عن هذا الارتباط، معتبرًا الفصح المسيحي يبدأ بالصوم الأربعيني ويمتد بنا إلى آلام السيد المسيح وصلبه وموته وقيامته.إذ يرى أن الآلام التي يشعر بها الجسم بسبب الصوم، هي شركة مع آلام السيد المسيح، ليختبر المؤمن بهجة قيامة المسيح وقوتها ومجدها. هكذا يربط القدِّيس مار يعقوب السروجي الصوم الأربعيني بآلام السيد المسيح وقيامته.

- يقتني الإنسان البرّ باستمرارية الجهاد، أما مَن يتكاسل فيهرب منه البرّ ولا يُدرِكه. هذه أيام للبرّ، اتعب أيها الصائم لتستطيع أن تجمع تلك الحلاوة المملوءة حياة

اركض في طريق الصوم مثل نشيط يفتش عن حياته، لتصير صديقًا عندما تُظهِر القيامة نفسها
صمْ للعريس لتفرح معه في وليمته، لأنه جاء لينصر الصائمين بأكاليلهم.
في يومه العظيم (عيد القيامة) عندما يلزم إشراق الوجه، كيف تفرح ما لم تتعب مع الصائمين؟
في ذلك العيد الذي يبهج وجه جميع المجاهدين، أية فائدة تجدها فيه لو كنت متنعمًا منذ اليوم؟
إن لم يؤلمك ألم الوحيد، فليس لك نصيبًا في فصحه لتسعد فيه.
اليوم العظيم الآتي يُنسي أتعاب جميع الصائمين، ماذا سينسيك ما لم يتعبك الصوم؟
أَعطِ للصوم الأتعاب ومسيرات البرّ حتى تذهب وتجد في نهايته الإكليل العظيم.
إكليل الصوم هو قيامة الوحيد، وما لم تصم تكون غريبًا أيضا عن الإكليل.
الصوم، والسهر، والصلوات مع الصدقات تدخل كهدايا أمام العريس عندما يقوم.
في وقت الصوم اجمع لك منه كل الهدايا، وعندما يراك العريس في يومه يفرح بلقائك.
من صدقاتك اجمع المواد كالنحلة، لتجلب معك شهد العسل إلى الوليمة.
البرّ هو طعم حلو في العيد الكبير، ليرافقك وإلا لن يفرح بك العريس.
عندما يدخل الصائمون بأشكالهم، ويحمل كل واحدٍ سهره وصومه وتنسكه، عندما يحيط المستيقظون (الملائكة) بقبره ببياضهم، والتلميذات بعطورهن وأطيابهن
في الصباح العظيم الذي فيه تستنير وجوه جميع الصائمين، كن الأول الذي يطالب بأجره بإشراق الوجه،
اركض إلى البشارة بسرعة مثل يوحنا، وشاهد القيامة وأنت غير مُحتَقر من قِبَل العدالة (يو ٢٠: ٤).
البس في القيامة ثوبًا منسوجًا من الصدقات، لتصير جميلاً مثل الملائكة في بياضهم.
اتعب وهيئ لك ثيابًا مجيدة للعيد الكبير: الصوم النقي والبرّ المملوء جمالاً.
مَن يسمح لك أن تفرح روحيًا في العيد ما لم تتعب جسديًا مع الصوم؟

القديس مار يعقوب السروجي

لقاء مُفَرِّح مع المسيح يسوع الصائم لأجلنا

تسلّم أبونا آدم وصية الصوم ألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، فعصاها. وجاء أبونا آدم الثاني أو الجديد، يطلب منه العدو أن يأكل، بتحويل الحجارة إلى خبز (مت ٤: ٣)، فرفض مُعلِنًا عن صومه، حتى كما طُردنا من جنة عدن في شخص آدم الترابي، ننعم بالدخول إلى الفردوس السماوي في شخص آدم السماوي، رأس الكنيسة، مقدس الصوم.

كثيرًا ما كان يفتتح مار يعقوب السروجي حديثه مع الشعب عن الصوم بتوجيه أنظاره إلى السيد المسيح نفسه، يطلب منه كلمة لتشبع نفسه في جسده الجائع. فتفيض نفسه تسبيحًا لله، قبل أن يقدم أنشودة عن الصوم لبنيان شعبه. اعتاد في أغلب أناشيده وميامره أن يبدأ الحديث بانفتاح قلبه مع لسانه على السماء، فقد أدرك أنه لا نفع لكلمات الوعظ أو الإرشاد ما لم تفتح السماء أبوابها وتفيض في داخله من خزائنها.

يقول القدّيس ساويرس الأنطاكي: [كان إشعياء النبي وهو يقيمهم من هذه الهُوّة (التعلُّق بالجسديّات) يرفعهم ويجذب عقولهم إلى فوق بإعلان عظمة الصوم، فيدفعهم إلى التهليل الروحاني، ويطرد من أرواحهم الحزن والكآبة، وهو يصيح فيهم قائلاً: "أمِثْل هذا يكون صوم أختاره؟ يومًا يذلّل الإنسان فيه نفسه، يحني كالأسلة (كالقصبة) رأسه، ويفرش تحته مسحًا ورمادًا..." (إش ٥٨: ٥). لذلك بينما كان ربّنا يُعلِن بهاء الصوم وسروره، كان يأمر أيضًا بصوت واضح قائلاً: "وأمّا أنت فمتى صمت، فادهن رأسك واغسل وجهك" (مت ٦: ١٧). فكان يشير إلى بريق الروح وطهارتها عن طريق الأعضاء الرئيسيّة في الجسم... يأمرنا ربّنا نفسه أن نغتسل ونتطهّر بامتناعنا عن الشرّ، ومن جهة أخرى أن نتزيّن ونضيء بممارستنا الخير الذي تنيره النعمة الروحيّة[1]!]

ويقول القديس أغسطينوس: [لنفهم الوصيّة على أنها غسل لوجهنا ودهن لرأسنا الخاص بالإنسان الداخلي... فدهن الرأس يشير إلى الفرح، وغسل الوجه يشير إلى النقاوة. فعلى الإنسان أن يبتهج داخليًا في عقله بدهن رأسه الفائقة السموّ في الروح، والتي تحكم وتُدَبِّر كل أجزاء الجسم، وهذا يتحقّق للإنسان الذي لا يطلب فرحًا خارجيًا نابعًا عن مديح الناس[2].]

---

[1] الشماس يوسف حبيب: الصوم، ص 16-17

[2] Conc. Stat. 5: 19.

عظات ونصائح، أم تسابيح وتهليل!

نتوقّع ممن يكتب عن الصوم أن يُقَدِّم عظات تحث علي ضرورة تنفيذ وصايا نسكية مُعَيِّنة تبدو صعبة لكثيرين. أما القديس مار يعقوب السروجي وإن كان قد طالب بهذا، لكنه لم يُقَدِّم كلماته في شكل عظات ونصائح، وإنما في شكل قصائد وتسابيح، يراها عطية يُقَدِّمها الله نفسه للكاتب أو المتكلم كما يعمل في نفوس المستمعين.

فالصوم بالنسبة لمار يعقوب هو فتح الفم الداخلي للنفس كي يشبع ويرتوي بالفرح السماوي والبهجة، فتتغنى النفس، لا ببلاغة بشرية أو كلمات مقتبسة من الغير، وإنما بفيض يحلّ بالنفس، فيُقِيم منها قيثارة روحية يعزف عليها روح الله القدوس سيمفونية الحب المتهلل بالفرح السماوي.

مع كل ميمر يتحدث فيه عن الصوم، يُقَدِّم لنا فكرًا إنجيليًا رائعًا، يمسّ تارة حياتنا الداخلية أو ملكوت الله المُقَام فينا. وتارة أخرى يمسّ أبديتنا وتمتُّعنا بخبرة السماء. وثالثة يُحَدِّثنا عن دور الصوم الحقيقي في علاقتنا بإخوتنا بني البشر أو بني جنسنا. ورابعة عن دور الصوم في إقامة عُرْسٍ لا للنفس وحدها بل ومع الجسد أيضًا بكونهما أشبه بعروسين في طريقهما نحو الأمجاد الأبدية.

الصوم كما يختبره القديس مار يعقوب السروجي يمسّ كل كبيرة وصغيرة في حياة المؤمن ليتمتّع باتحاد أعمق مع السيد المسيح، خلاله يختبر المؤمن عمل الثالوث القدوس غير المنقطع.

يا لجمال الصوم!

- شهي أنت أيها الصوم طوبى لمن انتصر بك، فبك توجد كل الأسرار .. عظيم أنت أيها الصوم، وعظيم هو السرّ الذي يتم فيك، فبك تُعطَى كل الانتصارات لجميع الظافرين.

  بك تنقّى النبي العظيم (موسى) ابن اللاويين، وصار للشعب شمسًا لَحْمِية بالضوء الذي لبسه (خر ٣٤: ٢٩-٣٥).

بك صار باطنيًا ودخل ولمسّ أعماق اللاهوت، وخرج وبشّر الحياة للعالم بالرجاء العظيم.
بك جُمِّل إيليا وتنقّى، واقتنى جناحين وطار وصعد إلى موضع لا يدخله الموت (٢ مل ٢: ١١).
بك أسقط مخلصنا عدوّنا في المعركة، وفي نهايتك خرّب الهاوية لأجلنا (مت ١:٤-١١).

القديس مار يعقوب السروجي

- الصوم حارس للنفس، ورفيق أمين للجسد،
الصوم سلاح الشجعان، ومُدَرِّب النُساك،
الصوم يعين في التجارب، ويُمَهِّد الطريق للتقوى،
إنه رفيق الهدوء وصانع العفة،
الصوم يعمل أعمالاً باهرة في الحروب،
ويُعَلِّم السكينة في وقت السلام،
الصوم يُقدِّس النذير ويجعل الكاهن كاملاً.
الصوم يجعل العاقر تلد أولادًا،
ويصنع الأقوياء، ويجعل المُشرِّعين حكماء.
لأنه كيف للكاهن أن يصلي بدون صوم؟
لقد كانت ممارسة الصوم أمرًا ضروريًا ليس فقط في عبادة العهد الجديد السرائرية ولكن أيضًا بالنسبة للعبادة الناموسية.
- الصوم يحفظ الأطفال ويُهَذِّب الشباب ويجعل الشيخ أكثر وقارًا. لأن الشيخوخة عندما تكون مُزَيَّنة بالصوم، تصير أكثر وقارًا. وهو للمرأة زينة لائقة ومناسبة، ولجام لكل من هم في حالة عنفوان كما يُمَثِّل الصوم حفظًا للحياة الزوجية وغذاء للبتولية. مثل هذه الأمور ينبغي أن تكون موضع اهتمام كل بيت.

القديس باسيليوس الكبير

"اعلموا أن الرب يستجيب لصلواتكم، إن واظبتم على الصوم والصلوات أمام الرب" (يهوديت ٤: ١٢).